قصة للكاتب الكيني نجوجي واثيونجو

رسوم حلمي التوني

المسدس



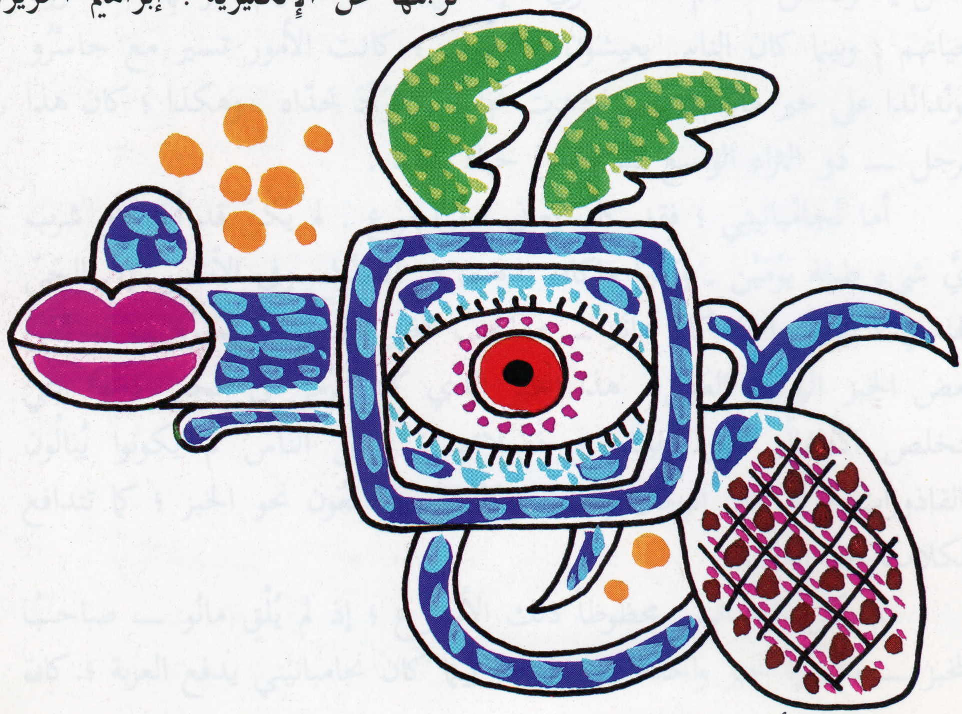
سلسلة **الأفق الجديد**

قصة للكاتب الكيني نجوجي واثيونجو

رسوم حلمي التوني

المسدس

ترجمها عن الإنكليزية : إبراهيم الحريري



الطبعة الأولى ، ١٩٨٩

دار الفتى العربي

دفع نْجامْبانِينِي العَرَبة التي كانت تحمل كيسَيْن كبيرَيْن مملوءَيْن سكراً ، وكان ينقُلهما إلى المخزن المُحاذِي لـ (الفُنْدُق الأخضر) . وكان المخزن مِلكاً لجاسْرُو مُونْدانْدا .

كانت كينيا تعيش — وقتها — تحت حالة الطوارئ . وكان الكثير من الناس يُعانون من الحكم الاستعماري ؛ إذ خُرِّبَت مُمْتلَكاتُهم ، وانْتُهِكَت شؤون حياتهم . وبينما كان الناس يعيشون في خوف ؛ كانت الأمور تسير مع جاسْرُو مُونْدانْدا على خير مايُرام ؛ فقد ازدهرت تجارته ، وتَوَرَّدَ خَدّاه . وهكذا ؛ كان هذا الرجل — ذو الثراء الواسع — يعيش حياة رَغْدَة .

أما نْجامْبانِينِي ؛ فقد كان يعاني من الجوع . لم يَكُنْ قد أكل أو شرب أيَّ شيء طِيلة يَوْمَيْن . وكثيراً ماكان يذهب في الأَصْباح وفي الأماسِي إلى الحَيّ الهندي ؛ ليَرَى ما إذا كان مانُو — صاحبُ المخبز الكبير في لِيمُورُو — قد رَمَى بعض الخبز الرديء العَفِن . هذا الخبز الذي كان يُرْمَى في الحُفَر ذاتِها التي يتخلص الأطفالُ الهنودُ فيها من فَضَلاتِهم . لكن الناس لم يكونوا يُبالُون بالقاذورات ؛ إذ كان الرجال والنساء والأطفال يَتَدَافَعُون نحو الخبز ؛ كما تتدافع الكلابُ نحو العَظْم .

لم يكن نجامبانيني محظوظاً ذلك الأسبوع ؛ إذ لم يُلْقِ مانُو — صاحبُ المخبز — بكِسْرَة خبز واحدة . وهكذا ؛ بينما كان نجامبانيني يدفع العربة ؛ كان

يتطلع إلى أَجْرِهِ . كان يتخيَّل كيف سيندفع ـــ بعد أن يتسلَّم أجرَه ـــ نحو مخزن كِيمْيُوسُو ؛ ليشتري كَعْكَةً كبيرة مُحلَّاة .

لكنه عندما وصل إلى مخزن جاسرو مُونْدانْدا ؛ أخبره هذا أنه سيتلقَّى أجرَه في اليوم التالي . فتساءل نجامبانيني : « إنهما شِلِنان فقط ! هل تَعْنِي أنه ليس لَدَيْكَ شلنان ؟ » .

رَدَّ جاسرو موندااندا مُتَسائِلاً هو أيضاً : « وهل تعتقد أنني أبْذُرُ النقودَ ؟ » .

فقال نجامبانيني مُسْتَعْطِفاً : « حتى ولو خمسين سِنْتاً ؟ » .

ورَدَّ جاسرو موندااندا مُتَذَمِّراً : « تَعالَ غداً ؛ تَتَسَلَّمْ أجرَكَ كله » .

ـــ « أليس بإمكانك أن تستغنيَ عن عشرين سِنْتاً ؛ أشتري بها قَدَحاً من الشاي ؟ » .

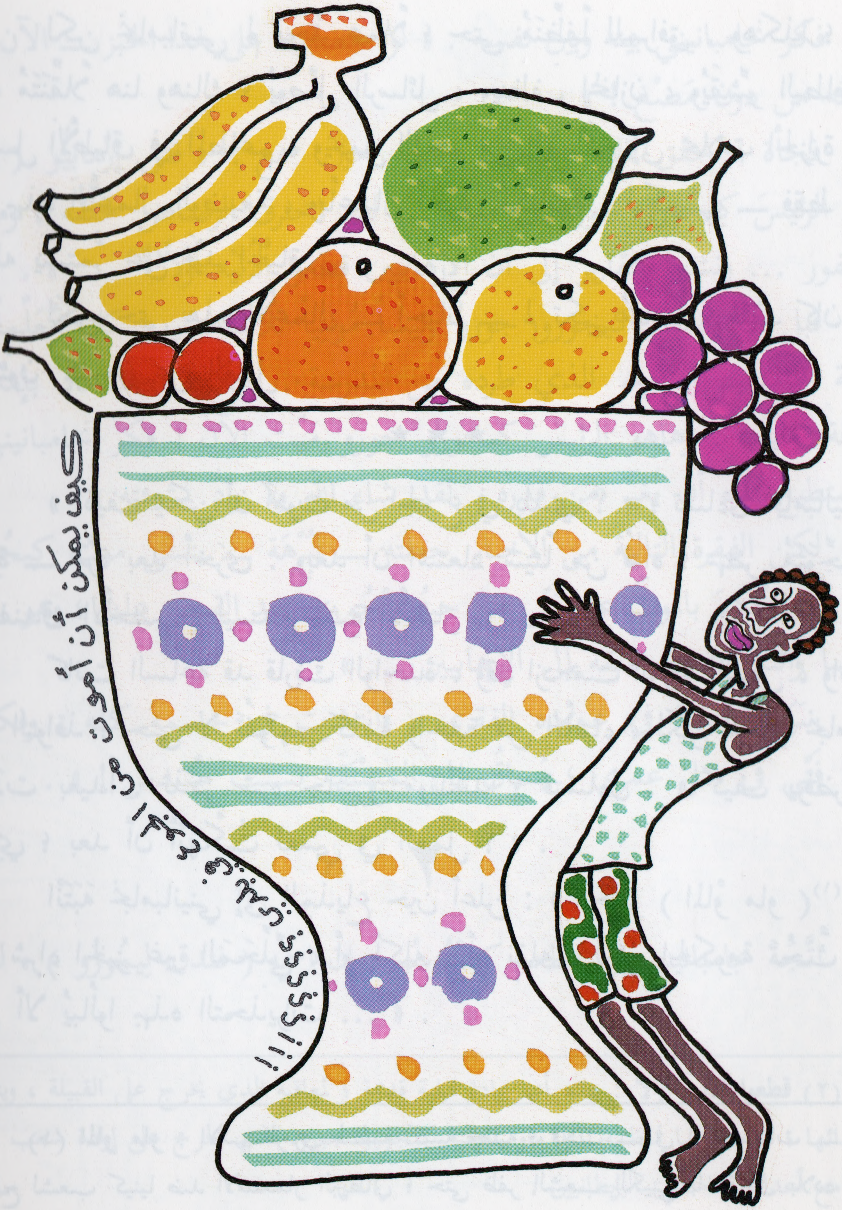
صرخ جاسرو موندااندا بالفتَى : « هل أنت أصَمّ ؟ إذا لم يكن هذا يُرضيكَ ؛ فبإمكانكَ أن تُعِيدَ الكيسَيْن إلى حيث أتَيْتَ بهما » .

كان نجامبانيني جائعاً ، وأحسّ بضعف بالغ ؛ فأخذ رأسُه يدور ، وسيطر عليه الإنهاك .

وسأل نجامبانيني نفسَه : « كيف يمكن أن أموتَ من الجوع في بلدي ؟ » .

★ ★ ★

قَدِمَ نجامبانيني إلى ليمورو ؛ لأنه سمع بوجود شُغْل كثير في شركة (باتا) للأحذية هناك . ومع أن هذا كان عام ١٩٥٣ ؛ فإن إشاعات كانت تَتَرَدَّد عن حاجة الشركة إلى المزيد من العمال ؛ منذ إضراب العمال عام ١٩٤٨ .


كيف يمكن أن أموت من

لكن نجامبانيني لم يَجِدْ عملاً ؛ حتى مُنَظِّفاً للمرافق . وهكذا ؛ قَضَى وَقْتَه مُتَنَقِّلاً هنا وهناك ؛ يُوَصِّل الرسائل ، وينظف المخازن ، ويُقَشِّر البطاطس ، ويغسل الأطباق في المطاعم ، ويحمل اللحم من المَسْلَخ إلى محلات الجزارة ! لقد قام بهذه الأعمال الوضيعة ، وبأعمال أخرَى مُشابِهة ؛ ليكسب — فقط — ما يجعله يستمرُّ على قَيْدِ الحياة .

لكن حتى هذه الأعمال — أحياناً — لم تكن مُتاحَة ؛ فلقد كان هناك باحثون كثيرون عن العمل .

★ ★ ★

« كيف يمكن أن أموت من الجوع في بلدي ؟ » ؛ تساءل نجامبانيني — بمرارة — مرَّة بعد أخرَى . وبعد أن استعاد شيئاً من قُواه ؛ نهض مُتَوَجِّهاً إلى (الفندق الأخضر) ليسمع نشرة الأخبار .

كانت الساعة قد قاربت الواحدة ، وقد ازدحمت الغرفة بالناس ، وامتلأت بهم النوافذ ؛ حتى لا تَفُوتَهم كلمةٌ واحدة من الأنباء ، لكن أفكار نجامبانيني شَرَدَت بعيداً . تذكَّر شَرَهَ جاسرو مونداندا ؛ فتساءل : « كيف يرفض دفعَ أجري ؛ بعد أن أنْهَكْتُ نفسي في العمل ؟ » .

انْتَبَهَ نجامبانيني إلى المِذْياع حين أعلن : « تُحَذِّر (الماوْ ماو)[1] الناس من شراء الخبز غير المَحَلِّيِّ ، أو أكله ، أو نقله . لكن الحكومة تَحُثُّ الناس على ألا يُبالُوا بهذه التحذيرات ... » .

---

(١) **الماو ماو** : الاسم الرمزي لمنظمة كينية وطنية ؛ قادت — في الخمسينيات — الكفاح المسلح لشعب كينيا ضد الاستعمار البريطاني ؛ حتى ظفر الشعب الكيني باستقلال بلاده .

فكر نجامبانيني بينه وبين نفسه : « لو حصلت على هذا الخبز ــ الآن ــ لابْتَلَعْتُه من دون مَضْغ ! » .

فجأة ؛ خفق قلبه وشحب وجهه حين سمع : « قتل إرْهابِيُّو (الماو ماو) الرئيسَ كِيجُورُو جُورُو في منزله ... لقد اخترق الرصاص حَلْقَه ، ومات من الفور ... وتشير التقارير إلى أن الإرهابيين قطعوا أُذُنَيْه أولاً[٢] ... » .

قبل أن يصبح كيجورو جورو رئيساً مُوالِياً للاستعمار ؛ كان مُعَلِّماً في مدرسة نجامبانيني ، وهو الذي طرده من المدرسة . وهكذا ؛ ما عاد بإمكانه مواصلة تعليمه . وهاهو الرئيس كيجورو جورو مَيِّت الآن ! فكر نجامبانيني : « لايستطيع المرء أن يُغَيِّرَ من قَدَرِهِ . لقد شاء الله ولا رادَّ لمشيئته » .

لكن الفقرة التالية من الأخبار جعلته ــ لبُرْهَة ــ ينسَى موت كِيجُورُو جُورُو : « حُكِمَ بالموت على فتًى من جِيتُو نْجُورِي بعد القبض عليه ؛ وهو ينقُل مُسَدَّساً واثنتي عشرة طلقة إلى الإرهابيين ... » .

سَرَتْ رعشة في عموده الفقري ، وانتشرت في جسمه كله ، وفكر : « هذا فتًى في مثل عمري ؛ يُساقُ إلى المِشْنَقَة بسبب مسدس ! » .

٢

اتَّجَهَ نجامبانيني إلى مطعم كِيمْيُوسُو . إن اسمه (فندق لِيمُورُو) ، لكن

---

(٢) **قطعوا أذنيه أولاً** : يبدو أنها عادة قبلية قديمة ؛ لمعاقبة الذي يخرج على القبيلة ، ويتعاون مع أعدائها ؛ لجأت إليها منظمة الماو ماو لمعاقبة كيجورو جورو الذي خرج على إرادة شعب كينيا وتعاون مع أعدائه ؛ المحتلين البريطانيين .

الناس اعتادوا أن يُسَمُّوه كيميوسو فقط .

كان نجامبانيني مُنْجَذِباً إلى مطعم كيميوسو ؛ كما تنجذب النحلة إلى الزهرة . ولم يكن يَمُرُّ يوم دون أن يذهب إليه .

كانت تُذْهِلُه رؤية الصحف المَحَلِّيَّة الكثيرة ، والكُتَيِّبات المُتنوِّعة المعروضة للبيع ؛ مُكَدَّسَة في واجهات المحلات . كان المُشْتَرُون يضعون النقود بجانب الصحف ، ويأخذون مايريدون ، ثم يواصلون طريقهم . وكانت النقود تَبْقَى — على حالها — دون أن يَمَسَّها أحد حتى نهاية النهار .

لم تكن هذه طريقة بيع الصحف فقط ؛ بل بعض سلع أخرَى أيضاً ؛ مثل اللبن والخبز . فلقد كان الزبائن يأخذون مايحتاجونه من الخبز والشاي ، ثم يضعون ثمنه على الطاولة دون غِشّ .

فكر نجامبانيني : « هذه مُعْجِزة حقيقية ! إن الناس يُنَظِّمُون أنفسهم بطريقة رائعة ! تُرَى ؛ أين ذهب اللصوص ؟ » .

صَمَّمَ نجامبانيني — هذا اليوم — ألا يموت من الجوع ؛ والخبز معروض للبيع بهذه الطريقة . وتساءل في نفسه : « ألا يمكنَ أن يكون هناك أحد مُخْتَبِئاً — في مكان ما — يراقب الطاولة ؛ لِيَرَى ماذا تناول الناس ، وماذا دَفَعُوا ؟ ثم أجاب : « كلا ! لا أعتقد ! » ، وكان السُّقَاة والطبّاخُون هم الوحيدون الذين رآهم نجامبانيني ، ولم يكن بادِياً عليهم أنهم يُبالُون بالمُشْتَرِين .

كان بإمكان نجامبانيني أن يسمع دَقّات قلبه : « بُمْ ! بُمْ ! بُمْ ! » . وعلى الشُّرْفَة هناك ؛ كان رجل يجلس على كرسي بلا مَسانِدَ ؛ مُنْحَنِياً نحو الحائط .

كان الرجل يضع على رأسه قُبَّعَة عريضة الحافة تغطي وجهه ؛ مشدودة إلى



كان يحسّ كأن كل واحد يعرف أنه سرق رغيف خبز......



أسفل ذَقَنِه . وكان يقرأ صحيفة مُومْنِيرِيرِي .

دخل نجامبانيني المطعم ؛ مُتَّجِهاً نحو الخبز المُكَوَّم ، ونظر من غير قصد يميناً ويساراً ، مَدَّ يده في اتجاه الخبز ؛ مُمْسِكاً برغيف منه . وضع يده في جيبه ؛ كأنه يُخْرِج نقوداً . وتظاهر بأنه يضعها على الطاولة ، ثم غادر المطعم .

أما الرجل ذو القبعة ؛ فقد كان ــ في الشُّرْفَة ــ مُسْتَغْرِقاً في قراءة صحيفته . عَبَرَ نجامبانيني السوق بأقصَى ما تستطيعه ساقاه من سرعة ، وتَمَنَّى لو أن له جناحَيْن يأخذانه بعيداً . كان يُحِسُّ ؛ وكأن كل واحد يراقبه ؛ كأن كل واحد يعرف أنه سرق رغيف خبز . ولم يجرؤ على التَّلَفُّت يَمْنَةً أو يَسْرَةً ؛ مَخافَةَ أن يجد نفسه مَتْبُوعاً . لكنه بعد فترة قصيرة ــ وقبل أن يصل إلى مْوا وا ثُوجُو ــ أحَسَّ بحافز كبير لمعرفة ما إذا كان أحد يُلاحِقُه . تَلَفَّتَ هنا وهناك ؛ فلم يكن أحد يَتَعَقَّبُه . لم يكن هناك أحد . أَحَسَّ نجامبانيني ــ عند ذاك ــ أنه لن يستطيع أن يخطو خطوة أخرَى .

لو كان هناك أحد في أعقابه ؛ لهَرَبَ بعيداً بالرغيف . لو أن أحداً صرخ : « اللص ! اللص ! » ؛ لكان انطلق مثل السهم .

أما الآن ؛ فإن ضميره يُؤَرِّقُه : « لماذا فعلتُ ما لا يعمله أحد آخر ؟ لماذا عَصَيْتُ إرادة الشعب ؟ أنا أشَدُّ جوعاً من الآخرين ؟ ماذا ستقول الأم واسُو ! إذا علمت بما قُمْتُ به ؟ » . وغَمَرَه شعور بالخجل .

وفوراً ؛ قاد نجامبانيني خطواته إلى مطعم كيميوسو ؛ فدخل وأعاد الرغيف إلى مكانه . ولم يَبْدُ له أن أحداً يَنْتَبِهُ إليه .

وبينما هو خارج ؛ سمع شخصاً يُناديه : « اسْمَعْ ! أنتَ ! » .

الْتَفَتَ ؛ فالْتَقَتْ عيناه عَيْنَي الرجل الجالس في الشرفة .

ـــ « هل تناديني أنا ؟ » .

ـــ « نعم ؛ أنت ! » .

تَرَدَّدَ نجامبانيني ؛ لكن الرجل نهض مُتَوَجِّهاً نحوه . كان يعاني من عَرَج خفيف في رجله اليُسْرَى . أحس نجامبانيني بالاضطراب ، وفكر : « لعل الرجل يريد أن يسألني عن الخبز » . وقَرَّرَ أن يقول الحقيقة كاملة ؛ إذا ما سأله أحد .

سأله الرجل : « أين رأيتُكَ من قبل ؟ » .

ـــ « لا أعرف ! » .

ـــ « ما اسْمُكَ ؟ » .

ـــ « نجامبانيني » .

ـــ « نجامبانيني ؟ » .

ـــ « نعم » .

ـــ « في أيِّ مدرسة أنتَ ؟ » .

ـــ « أنا لا أذهب إلى المدرسة » .

ـــ « أَلَمْ تذهب إلى المدرسة قَطُّ ؟ » .

ـــ « بَلى ؛ ذهبتُ إلى المدرسة » .

ـــ « أين ؟ » .

ـــ « مدرسة ثاي أُو ثاي الإفريقية الابتدائية » .

ـــ « هل هي المدرسة التي كان كيجورو جورو يُعَلِّم فيها قبل أن يصبح رئيساً ؟ » .

ـــ « نعم ! إنها هي » .

ـــ « لماذا تركْتَها إذَنْ ؟ » .

ـــ « لم أتْرُكْها برغبتي ! طُرِدْتُ بأمر من هانْجِبْلِي ـــ المدير الإنجليزي ـــ وكيجورو جورو ! » .

ـــ « لماذا ؟ » .

ـــ « زَعَمًا أنني أقود الصغار إلى الغابة ليُصبحوا إرهابيين » .

ـــ « أية غابة ؟ » .

ـــ « غابة نْجِينْدا يِثْيا في جبال كاجْرا نْجُورُو » .

ـــ « وهل كان هذا صحيحاً ؟ » .

ـــ « كَلَّا ! لقد انقلبت بنا الحافِلَة ؛ عندما كُنّا في طريقنا إلى مُتْحَف نَيْرُوبِي ، وتُهْنا في قلب الغابة ، وضاع مِنّا طريق العودة . ومن حسن حظنا أن المقاتلين من أجل الحرية أرشدونا إلى الطريق الصحيح » .

ـــ « إذَنْ ؛ فأنتَ تعرف غابة نْجِينْدا يِثْيا ؟ » .

ـــ « نعم ! أعرفها » .

ـــ « هل تعرف وديان الضاحك والدموع ؟ » .

ـــ « نعم ! قد أبدو لكَ صغيراً ؛ لكنني أعرفها بالفعل » .

ـــ « هذا ما يحدث في كل أنحاء الوطن . الصغار يَنْضَجُون قبل الأوان ... هل تعرف أن الرئيس كيجورو جورو قُتِلَ بالرصاص ؟ » .

ـــ « نعم ؛ سمعتُ ذلك في نشرة أنباء الساعة الواحدة » .

ـــ وهل سُرِرْتَ به ؟ » .

أجاب نجامبانيني : « لا أعرف حقيقة مشاعري ؛ فأنا لم أُضْمِرْ له خيراً أو شرًّا » .

ثم استطرد قائلاً : « الأم واسُو تقول إنه لايمكن لأحد أن يُغَيِّر إرادة الله » .

صَمَتَ الرجل . نظر إلى نجامبانيني مَرَّة ثانية ، ثم قال : « لقد قُمْتَ بعمل حَسَن » .

ــ « ماهو ؟ » .

ــ « عند إعادتك الخبزَ إلى مَحَلِّه » .

خفق قلب نجامبانيني بقوة ، لكن تعابير وجهه لم تتغير ، وسأل : « لماذا ؟ » .

ــ « أَلَمْ تَسْمَعْ بأن (الماو ماو) حَذَّرت الناس من أكل هذا النوع من الخبز ؟ » .

ــ « لكن لماذا يمنعون الناس من حمل هذا الخبز ؟ » .

أجاب الرجل : « ستعرف يوماً ما ، لكن دَعْنِي أُوَضِّح لكَ هذا الأمر : لا تُصْدِر (الماو ماو) أمراً إذا لم يكن في مصلحة الشعب » .

سأله نجامبانيني فجأة : « هل أنتَ المُراقِب هنا ؟ » .

ــ « نعم و ... لا ! إذ يجب أن يراقبَ أحدُنا الآخرَ . ينبغي أن نتعلم الواحدُ من الآخر ، وأن نُمَكِّنَ عقولنا وأرواحنا من أن تنموَ معاً » .

قال نجامبانيني كاذباً ، وهو يحاول أن يحفظ ماء وجهه : « كنتُ أريد ــ فقط ــ أن أعرف كيف يمكن شراء الخبز دون وجود بائع » .

قال له الرجل : « إذا كان لَدَى الناس الإيمان والشجاعة ، إذا امتلكوا فكرة واضحة عَمَّا يريدونه ؛ أجل ؛ إذا أَصْغَوْا إلى نداء شعبهم ووطنهم ؛ فإنهم يمكن أن يَتَغَيَّرُوا تَغَيُّراً كبيراً : فلو كانوا جِياعاً ؛ شَبِعُوا ! ولو كانوا عِطاشاً ؛ ارْتَوَوْا ! ولو كانوا مُتْعَبِين ؛ استراحوا ! ولو ضَلَّتْ قلوبهم ؛ لعَادَتْ إلى السبيل القويم ، ولو انغلقت أفهامهم ؛ لتَفَتَّحَتْ مثل الأزهار ، ولاستقامت قاماتهم

وصَفَتْ أذهانهم واطمأنَّتْ نفوسهم » .

اعترف نجامبانيني قائلاً : « لقد كنتُ جائعاً » .

ــ « لماذا ــ إذَنْ ــ أَعَدْتَ الخبز ؟ » .

ــ « لا أدري » .

ــ « إن ما فَعَلْتَهُ .. أقصد انتقادَكَ نَفْسَكَ ؛ يُظْهِر استعدادَكَ للتَّعْمِيد » .

ــ « التعميد ؟ تعني الخِتان ؟ » .

ــ « كلا ؛ أعني تعميدَكَ مقاتلاً من أجل الوطن » .

ــ « كيف ؟ » .

ــ « ألا تعرف ؟ » .

ــ « كلا ! » .

ــ « هل تَوَدُّ أن تعرف ؟ » .

ــ « نعم ! » .

ــ « هل أنتَ متأكد من استعدادكَ ؟ » .

ــ « نعم ! » .

تَوَقَّفَ الرجل مرة أخرَى . عايَنَ نجامبانيني من قِمَّة رأسه حتى أَخْمَص قدمه ؛ كأنما يَزِنُه بفِكْرِهِ ليعرف قيمته ، ثم قال : « عُدْ إلى هنا غداً في الثامنة صباحاً ؛ ستَجِدْني أتناول الشاي على طاولة في الزاوية . خُذْ قَدَحَكَ ، وتَوَجَّهْ نحو طاولتي ، لكن لاتُكَلِّمْني حتى أكلمكَ » .

استدار الرجل فجأة ، ودخل المطعم وهو يَعْرُج . ظل نجامبانيني ــ بُرْهَةً ــ واقفاً في مكانه ، ثم تذكر أنه لم يسأل الرجل عن اسمه . تَبِع الرجلَ إلى

المطعم ، لكنه لم يَجِدْه . اندفع نحو الباب الخلفي ، فَتَّشَ عنه في المطابخ والمرافق ، لكن الرجل لم يكن هناك ولا في أي مكان .

تساءل نجامبانيني مذهولاً : « هل اخْتَفَى بسِحْرِ ساحر ؟ أي نوع من الرجال هو ! » .

٣

في الساعة الثامنة تماماً من صباح اليوم التالي ؛ كان نجامبانيني في المطعم . قَصَدَ رُكْنَ الشاي ؛ فأخذ قدحاً وملأه ، ثم تَلَفَّتَ حوله ؛ كأنه يبحث عن مكان ، وتَوَجَّهَ — أخيراً — إلى طاولة في الزاوية القريبة من النافذة .

كان الرجل — ذو القبعة العريضة — جالساً هناك ؛ مُنْحَنِياً يقرأ صحيفته ، يُقَلِّبُ صفحاتها بيده اليُمْنَى ، ويُمسك باليد اليُسْرَى قدح الشاي . على الطاولة ؛ كان هناك رغيف من الخبز .

قال الرجل : « نحن نجلس قريباً من النوافذ مُسْتَعِدِّين للهرب في أية لحظة » .

لم يرفع الرجل عينَيْه عن صحيفته . كانتِ شفتاه كأنهما مُطْبَقَتان ، لكن كلماته كانت تصل إلى نجامبانيني واضحة كل الوضوح . تساءل نجامبانيني — في نفسه — مُتَعَجِّباً : « لماذا يقول (نَحْنُ) نجلس قرب النافذة ؟ مَنْ نكون (نحن) ؟ ما الذي يحاول أن يقوله لي ؟ » .

— « هل سَمِعْتَ مَرَّةً باسم الجِنِرال رُوهِني ؟ » . سأله الرجل على نحو مفاجئ . فَرَدَّ نجامبانيني مُتَسائِلاً : « هل هو المقاتل المشهور من أجل الحرية ؟ » .

ــ « نعم » .

ــ « هل هو الرجل الذي يخشاه الجنود البريطانيون أشَدَّ الخِشْيَة ؟ » .

ثم سأل الرجل : « قُلْ لي : مَنْ لايخاف النَّحْلَ ؟ لقد سمعتُ أن لسْعَته أوْجَعُ من لَسْعِ النحل »[٣] .

قال نجامبانيني : « إذن ؛ فقد سَمِعْتُ عنه . بوُدِّي لو أراه شَخْصِيًّا ؛ أُصافِحُه ، وأصبح واحداً من رجاله . لكن قُلْ لي : هل صحيح مايَرْوِيه الناسُ عن ارْتِعاب الجنود البريطانيين والحرس المحلي منه ؟ » .

ــ « نعم ؛ هذا صحيح . لكن أَصْغِ إليَّ الآن ؛ إذ لا وقت لَدَيْنا نُضَيِّعُه . ستحدث عملية تَمْشِيط[٤] ــ في ليمورو ــ اليوم . سَيُطْلَقُ عِنانُ الجنود الاستعماريين للقبض على الذين أطلقوا الرصاص على الرئيس كيجورو جورو » .

ــ « وهل الذين أطلقوا الرصاص عليه هم من ليمورو » .

فأجاب الرجل : « إنهم كِينِيُّون . إنهم في ليمورو ، وفي كل مكان من كينيا ؛ لأنهم هم الذين يصنعون مستقبل كينيا » .

وسأله نجامبانيني : « لكن لماذا طَلَبْتَ مِنِّي أن ألْتَقِيكَ هنا اليوم ؟ وما الذي تريدني أن أفعله ؟ » .

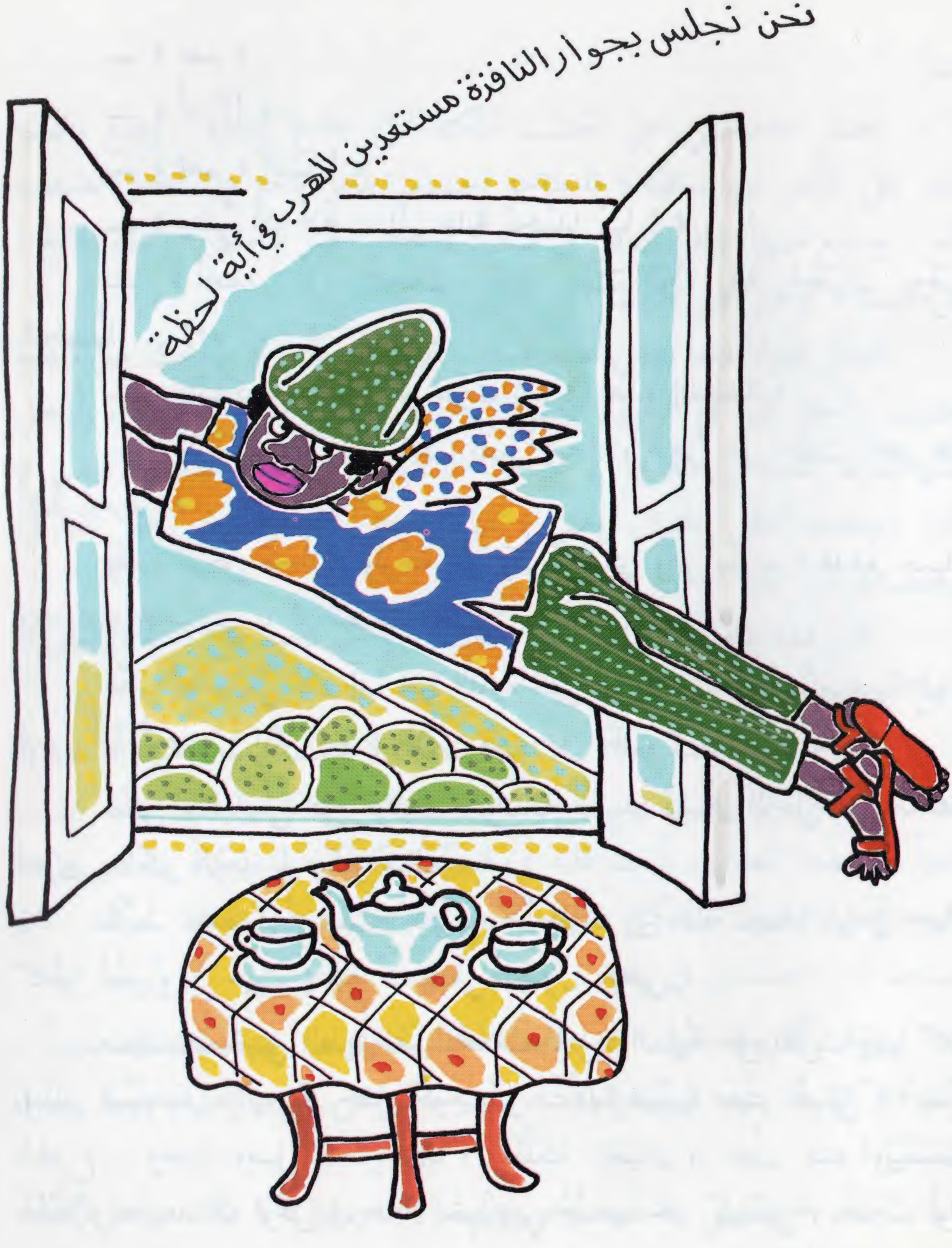
ــ « هل تَرَى رغيف الخبز هذا ؟ عليكَ أن تأخذه ، وأن تحرص عليه ، وأن تُسَلِّمَه إلى الجِنِرال رُوهِنِي » .

ــ « الجنرال روهني ! » .

---

(٣) **أوجع من لسع النحل** : المقصود هنا أن رصاصه لايخطئ ، ويصيب مقتلاً من الأعداء .

(٤) **عملية تمشيط** : بالمعنَى العسكري أو الأمني ؛ تعني تفتيش منطقة معينة بدقة ؛ من قبل عدد كبير من الجنود أو رجال الشرطة ؛ للقبض على جنود الخصم أو المطلوبين لقوات الأمن .


نحن نجلس بجوار النافذة مستعدين للهرب في أية لحظة

ــ « نعم » .
ــ « أنا ؟! » .
ــ « نعم ؛ أنتَ ! » .
ــ « وعَلَيَّ أن أذهب إلى غابة نْجِينْدا يِثِيا ؟ » .
ــ « أعتقد أني سمعتك تقول إنك تَوَدُّ رؤية الجنرال روهني شخصيًّا ... ؟ » .
ــ « بالتأكيد ! بودي لو طِرْتُ إليه في هذه اللحظة » .
ــ « تَدَبَّرْ ــ إذن ــ كيف تصل إليه ، واحْرِصْ على رغيف الخبز هذا أشَدَّ الحرص » .

وقف الرجل فجأة ، وتَوَجَّهَ نحو ركن الشاي وهو يعرج ؛ فدفع حسابه وحساب نجامبانيني ، ثم انصرف خارجاً .

فكر نجامبانيني : « إنها المرة الثانية التي أنسَى فيها أن أسأله عن اسمه . ثم .. ألَمْ تُحَذِّر (الماو ماو) الناس من حمل الخبز ؟ » .

قبض نجامبانيني على الرغيف ، واندفع خارجاً ليسأل الرجل بِضْعَةَ أسئلة أخرَى ، لكن الرجل لم يكن هناك .

تَأَبَّطَ نجامبانيني رغيف الخبز ، وبدأ طريقه إلى غابة نجيندا يثيا في جبال كاجْرا نْجُورُو ؛ حيث يمكنه أن يلتقي الجنرال روهني .

صَعِدَ نجامبانيني الطريق عَبْرَ المحلات الهندية المَبْنِيَّة على التَّلِّ . وبينما كان يَتَسَلَّق المُنْحَدَر ؛ ليجتاز حقل كُومِيرِيثْيُو مُتَّجِهاً صَوْبَ جِيتُو جُوثِي ؛ أَحَسَّ بالجوع . وحين وصل نْجارا رِيجا ؛ تَمَلَّكَهُ الغَثَيان ؛ جَفَّ فمه وتَيَبَّسَتْ حَنْجَرَتُه . وبعد أن تَوَغَّلَ في غابة نِجْوِيرُوبِي مُتَّجِهاً نحو كِينِينْبِي ؛ خارَتْ قواه

تماماً .

جلس نجامبانيني على العُشْب مُتَّكِئاً على جذع شجرة . وضع رغيف الخبز على الأرض بين ساقَيْه ؛ فاجتاحه إحساس غامِر بالجوع ، أحس بضعف بالغ ، وسمِع صوتاً خافتاً يهمس في أذنه : « هاهو الخبز أمامكَ ؛ وأنت جائع ! هل تموت ؛ والخبز بين يدَيْكَ ؟ » .

تَفكَّرَ طويلاً فيما ينبغي عليه عمله ، ثم وجد حَلًّا : « سأبحث عن شَظِيَّة خشب ، أحفِر ثقباً في الرغيف يكفي لإدخال أصابعي ، أُزِيح القشرة ، وأُدْخِل يدي مُنْتَزِعاً اللُّبَّ من الداخل ، ثم أُعِيدُ القشرة إلى مكانها ؛ فيبدو الرغيف كما كان . وعندما ألتقي الجنرال روهني ؛ سأخبره بأني لا أعرف مَنْ حَفَر ثقباً في الرغيف » .

كان هذا مافعله تماماً ، حفر الثقب ، وأزاح قطعة من قشرة الرغيف ، ودَسَّ أصابعه لتغوص في اللب .

اجتاحت بَدَنَه ــ فجأة ــ رعشة ؛ فقد لامست أصابعُه شيئاً له صلابة المعدن ، حاول مرة أخرَى وهو يفكر : « يالصلابة هذا الخبز ! » . وأخرج ــ أخيراً ــ قطعة المعدن . سقط قلبه في قدمَيْه ؛ كان جسده كله ينتفض ؛ فما أخرجه من الرغيف لم يكن قطعة حجر أو خشب أو معدن .. لقد كان مسدساً ! .. مسدس في رغيف خبز !

جَرَفَتْ موجة الخوف التي اجتاحته ــ فجأة ــ جوعَه وعطشَه بعيداً . تذكر ما كان قد سمعه في نشرة الأنباء : « الحكم على فتًى بالإعدام بتهمة حِيازة مسدس ! » .

سأل نجامبانيني نفسه ؛ وهو يتلفت يمنة ويسرة : « ماذا سأفعل لأُنْقِذَ



مسدس في رغيف خبز !!!!

حياتي ؟ » . أحس كأن الأشجار والأعشاب والأدغال ، وكل شيء في الغابة ؛ يراقبه مُنْصِتاً : « هل أترك المسدس هنا وأطير هارباً ؟ هل أدفنه ؟ . لكن إذا قُدِّرَ للجنرال روهني أن يعرف بما فعلتُه ؛ فما هي الفكرة التي سَيُكَوِّنُها عَنِّي ؟ وماذا ستقول الأم واسُو ؟ » .

قَرَّرَ نجامبانيني أن يُعِيدَ المسدس حيث وجده في رغيف الخبز ؛ مُغَطِّياً إيّاه كما كان . سيأخذه إلى غابة نجيندا يثيا ، لكنه أقسم أنه لن يَدَعَ أيَّ رجل أعْرَجَ يرسله في مهمَّة مرة أخرَى .

لكنه قبل أن يخطو ثلاث خطوات ؛ سمع صوت رجل أبيض يُفَجِّرُ صمت غابة نجويروبي صارخاً : « ارْفَعْ يَدَيْكَ ! لا تَتَحَرَّكْ ! » .

تجمَّد نجامبانيني في مكانه مثل حَجَر أصَمّ . رفع يدَيْه في الهواء ؛ مُمْسِكاً برغيف الخبز . واستدار ليواجه الصوت ؛ فاكتشف أنه مُطَوَّق من كل الجهات بجنود يُصَوِّبُون بنادقهم نحوه .

ـــ « لقد انْتَهَيْتُ ! هذه هي نهايتي » ؛ قال نجامبانيني في داخله .

دفعه اثنان من الحرس المحلي ـــ عبيد البريطانيين ـــ بأعقاب بنادقهم ؛ في حين كان الرجل الأبيض واقفاً خلفهم . سخر منه جنود الحرس المحلي قائلين : « الإرهابي الصغير يأخذ الخبز إلى الإرهابيين ! » .

كان قلب نجامبانيني يَقْرَع قرعاً عنيفاً . كان يعرف أن العثور عليه ؛ وبحَوْزَتِه مسدس ـــ في ظل حالة الطوارئ ـــ يعني الموت الأكيد .. وتذكر الفتَى الذي سمع عنه في نشرة الأنباء .

صرخ في أعماقه : « من أجل ماذا أموت أيتها الأم واسو ؟ وداعاً يا أمي ! .. وداعاً ! .. » .

٤

كانت عملية تمشيط مدينة ليمورو عام ١٩٥٣ ــ بعد مصرع كيجورو جورو على يد المقاتلين من أجل الحرية من رجال (الماو ماو) ــ واحدة من أكبر العمليات ، ومازال الناس يتحدثون عنها حتى اليوم .

وجد نجامبانيني الكثيرين غيره قد أُلْقِيَ القبض عليهم . كان الرجال والنساء والأطفال جالسين على أعقابهم في صَفَّيْن طويلَيْن ، وكان الجنود البِيض يرتدون ثياباً مُمَوَّهَة ؛ وهم مسلحون حتى أسنانهم ، وجاهزون للهجوم على الناس وسَحْقِهم .

كان هناك العديد منهم ؛ يستند بعضهم على السيارات العسكرية الصغيرة والكبيرة . في حين كان آخرون يتنقلون هنا وهناك ؛ حامِلين الرَّشَّاشات والمسدسات . لكن الأكثر إثارة للدهشة ؛ كان رؤية فتًى أبيض يلبس ملابس الجنود ؛ مُسَلَّحاً بسلاحهم ، يختال رائحاً غادِياً مَزْهُوًّا بنفسه .

وكان هناك ــ أيضاً ــ العديد من الجنود الإفريقيين والحرس المحلي يفوقون البيض عَدَداً ؛ يتنقلون بين الناس ؛ وهم يصيحون بكلمات من اللغة المحلية : « قِفُوا في صَفَّيْن ! قفوا في صفين ! » ، وغير ذلك من الأوامر المشابهة البَلْهاء .

كان يقف في مواجهة الأسرَى مُخْبِرٌ لا يبين من رأسه غير عينَيْه ؛ يهُزّ رأسه أو يحركه إلى هذا الجانب أو ذاك . فإذا حَرَّك رأسه يمنة ؛ فقد كان هذا يعني أن الشخص الذي يواجهه ليس من رجال (الماو ماو) ، وكان هذا الشخص يُقْتاد إلى مجموعة غير الأعضاء . أما إذا أَوْمَأ الرجل المُقَنَّعُ برأسه إلى جهة اليسار ؛ فقد كان هذا يعني أن الرجل الذي يقف قُبالَتَه هو من الأعضاء

النشيطين في منظمة (الماو ماو) ، وكان يجري اقتياده إلى المجموعة الأخرَى التي تَضُمّ الأعضاء .

أما نجامبانيني ــ الذي كان مايزال ممسكاً برغيف الخبز ــ فقد تَدَبَّرَ أمره ؛ بحيث يقف في نهاية الصَّفِّ . لكن ما الذي كان يحمله : الخبز أم الموت ؟

كاد قلبه يَنْخَلِع من الخوف ، لكنه كان يُحِسُّ ــ في الوقت نفسه ــ بشعور من الفخر ؛ عندما كان يفكر أنه ــ من بين جميع الأَسْرَى ــ رُبَّما كان الوحيد الذي يحمل مسدساً .

كان يفكر : « أنا نجامبانيني ؛ ابن الأم واسو ؛ أنا الوحيد الذي أحمل سلاحاً يُمَكِّنني من الدفاع عن نفسي . ولو اكْتُشِفَ المسدس معي ؛ فستكون نهايتي . لكن كم ستكون المفاجأة للجميع ؛ إذا رَأَوْه وهو يُشِعُّ في ضوء الشمس » .

كانت الساعة قد قاربت الثالثة ؛ والحَرُّ على أشُدِّه . وبينما كان الكثير من الأطفال يبكون جوعاً وعطشاً ؛ كان الجنود يستمتعون بوَجْبَة الغداء ؛ يَطْحَنُون بأسنانهم رقائق البَسْكَوِيت ، ويَمْضُغُون شطائر اللحم ، ويبتلعونها بجَرْعات من الماء والوِيسْكي ؛ كأنهم كانوا يَتَحَدُّون بذلك كل الشعب الكيني الجائع .

كان نجامبانيني آخر شخص يواجه الرجل المقنع . حَدَّقَ في ثقبي القِناع ؛ حيث كان الرجل يُصَوِّبُ نظراته إليه ؛ فامتلأ قلبه رُعْباً .

انتظر إشارة المُخْبِر ؛ كأنه ينتظر قضاء الله ؛ وقلبه يخفق بشِدَّة . وعلى حين غِرَّة ؛ أَوْمَأَ المخبر برأسه إلى اليسار ؛ فدفع الجنود نجامبانيني بأعقاب بنادقهم إلى مجموعة (الماو ماو) .

وهكذا ؛ انقسم الناس إلى ثلاث مجموعات : مجموعة تضم الجنود البيض

وخَدَمَهم من الأفارقة ، ومجموعة أخرَى تضم المُتَّهَمِين بالانتماء إلى منظمة (الماو ماو) . أما المجموعة الثالثة ؛ فكانت تضم غير المُذْنِبين . وكان نجامبانيني ضمن المجموعة الثانية .

تلفت حوله ليَرَى ما إذا كان هناك مَنْ يعرفه ضمن المجموعة ؛ فاجتاحت جَسَدَه رِعْشَةٌ مُفاجِئَةٌ . لم يُصَدِّقْ عينَيْه . ربما كانتا تَخْدَعانِه ! فلقد رأى بين (الماو ماو) الرجلَ الأعرجَ الذي يرتدي قبعة عريضة يَتَدَلَّى منها رباط . أجل ! إنه الرجل الذي أعطاه رغيف الخبز في مطعم كيميوسو . التقت عيونهما ؛ فأشاح الرجل بوجهه سريعاً .

كيف وصل الرجل إلى غابة نجويروبي ؟ وكيف ، وأين ألْقَوا القبض عليه ؟ تساءل نجامبانيني ؛ وعيناه مُثَبَّتَتان على الرجل .

تَلَقَّى نجامبانيني رَكْلَة في أضلاعه ؛ فشعر كأنه سَيَتَقَيَّأ ، لكن مَعِدَته كانت خاوِية . وبينما كان يَتَمَلَّكُه الدُّوَار ؛ أحس بلَسْعَة سَوْط حادة على وجهه ؛ فدار رأسُه دَوْرَةً أخرَى ، ورأى النجوم في عِزِّ الظهيرة . أمسكه الرجل الذي ضربه ــ من ياقته ــ وشَدَّه بقسوة إلى أعلَى .

كان الرجل يسأله ؛ وهو يشير إلى الضابط المُتَّكِئ على سيارة عسكرية : « كيف تَجْرُؤ على عِصْيان أوامر الرجل الأبيض ؟ من عَلَّمَكَ العصيان ؟ » .

لم يَنْتَبِهْ نجامبانيني إلى الرجل الأبيض ؛ وهو يَسْتَدْعِيه إليه ؛ لأن ذهنه وعينَيْه كانوا مُرَكَّزِين على الرجل ذي القبعة . وقف مُتَحامِلاً ؛ وهو يتألم ؛ قابِضاً على رغيف الخبز ، وتَوَجَّهَ نحو الضابط المسئول .

كانت عَيْناه زائِغَتَيْن ، لكنه شَدَّ قامته ــ لكي لاتظهر عليه أيَّة أمارة من أمارات الخوف ــ في مواجهة الرجل الأبيض ؛ عَدُوِّ الشعب .


كان الجنود يمضغون شطائر اللحم...
...ويبتلعونها بجرعات من الويسكي

سأله الضابط : « أنتَ تعمل مع (الماو ماو) ، وكنتَ تأخذ لهم الخبز ؛ أليس كذلك ؟ » .

دفعه حافِز النجاة بنفسه وحماية المسدس إلى التفكير بسرعة . تذكر أنه سمع بالأمس ــ في نشرة الأخبار ــ أن (الماو ماو) مَنَعَت الكينيين من شراء الخبز ، أو أكله ، أو نقله .

تَوَجَّهَ نجامبانيني إلى الضابط في ضِعَةٍ ؛ وهو يقول مُسْتَعْطِفاً : « لا أعرف أي شياطين هم رجال (الماو ماو) . وعلى أية حال ؛ فأنا لا أنتمي إليهم . انظرْ ! إنني أحمل خبزكم . أَلَمْ تُحَذِّر (الماو ماو) الكينيين من تناول خبز البيض ؟ إن الرجل المقنَّع كاذب . لقد أرْسَلَتْنِي أمي لشراء هذا الخبز . فكيف أعْصِي أوامر (الماو ماو) لو أنني واحد منهم ؟ » .

نظر الرجال البيض إلى بعضهم . ابتسم قائدهم ابتسامة عريضة ، وربَتَ على كَتِف نجامبانيني قائلاً : « أنتَ ولد طيب ! » . وطلب إليه أن يلتحق بمجموعة غير المُذْنِبين بسبب الانتماء إلى منظمة (الماو ماو) .

أحس نجامبانيني بشيء من الفَرَج ، وذهب ليجلس في مقدمة المجموعة الأخرَى ؛ حيث يمكنه أن يُتابع استجواب رجال (الماو ماو) . عرف ــ الآن ــ أن لكل أمر من أوامر (الماو ماو) قَصْداً ومَغْزًى .

٥

حدث ما اسْتَفَزَّ نجامبانيني ، وأحَلَّ الغضب مَحَلَّ الخوف في نفسه .

كان الصَبِيُّ الأبيض يَسْتَجْوِب الناس . كان يَسُوطُهم ويضرب رُؤوسهم بعَقِبِ مسدسه ؛ مالَمْ يقولوا ما كان مُتَوَقَّعاً منهم . كان ــ أحياناً ــ يَبْصُق في

وجوههم ، أو يقوم بأي عمل مشحون بالحقد والاحتقار .

وعندما رأى الضابطُ المسئول مايقوم به الصبي ؛ انفجر ضاحكاً مُسْتَهْزِئاً ؛ وهو يُرَدِّدُ : « انظروا ! إن رجال (الماو ماو) جُبَناء بِحَقٍّ . أَلَسْتُمْ رجالاً ؟ تَتَقَبَّلون الضرب من طفل ؟ » .

وكان هناك أمر آخر أشَدّ إثارة للغَيْظ والألم . فإذا حاول أي رجل أو امرأة الإفلاتَ من الضربات ؛ كان رجال الحرس يَلْوُون يدَيْه خلف ظهره ؛ لِيُمَكِّنُوا الصبي الأبيض من تسديد ضرباته كما يشاء .

فكر نجامبانيني : « أيَّ شيء فوق هذه الأرض يمكن أن يفعله من أجل مساعدة هؤلاء الذين يجري تعذيبهم على هذا النحو ؟ » ، ثم تساءل في نفسه : « لو كان الجنرال روهني هنا ؛ فماذا سيفعل ؟ » .

انْتَبَهَ ــ فجأة ــ إلى أن ثَمَّةَ مسدساً مَخْبُوءاً في رغيف الخبز الذي يحمله . ماهي فائدة المسدس ؛ إذا لم يكن بإمكانه حماية الناس ؟ كانت الأم واسو تُرَدِّد ــ دائماً : « إن على المَرْء أن يكون شجاعاً ؛ فلا أحد يعيش إلى الأبد » .

أخذ نجامبانيني يزحف نحو الضابط المسئول الذي كان مايزال مُسْتَنِداً إلى السيارة العسكرية ؛ يَمْضُغ البسكويت وهو يضحك .

كان انتباه الجميع مُنْصَبًّا على مَشْهَد الصبي الذي يُعَذِّب الناس ويُذِلُّهم على أرض وطنهم . لم يلاحظ أحدٌ تَحَرُّكَ نجامبانيني الذي كان قد قَرَّر ما يجب عليه فِعْلُه .

خَفَقَ قلبُه بسرعة . حاول أن يُشَجِّع نفسه : « أمي تقول : لا يطول موت المَرْء من الفجر حتى الغَسَق ؛ فالموت يأتي فجأة ، وليس هناك ما هو أكثر جَلالاً من أن يموت المرء من أجل شعبه . يابُنَيَّ ! لاتُصْغِ لأولئك الذين يُسَفِّهُون

العمل الوطني بالأمثال التي تُحَوِّل الناس إلى جبناء .. لاتُصَدِّقْهم عندما يقولون : لاينبغي أن ينظر الناس الذين انحنت ظهورهم إلى أعلَى . يابُنَيَّ ؛ إن إرادة الشعب من إرادة الله » .

شعر نجامبانيني ــ وهو يتذكر كلمات أمه ــ بشجاعة فائقة . مَزَّقَ الرغيف ــ فجأة ــ إلى نِصْفَيْن ، وانتزع المسدس من داخله ، وقفز خلف الضابط المسئول . غَرَزَ فُوَّهَةَ المسدس في مُؤَخِّرة عُنُقِه ، وأمره قائلاً : « ارْمِ رشاشَكَ ، وارْفَعْ يدَيْكَ ! ولا تَلْتَفِتْ ! لو التفتَّ لقَتَلْتُكَ » .

ماتت ضحكةُ الرجل الأبيض في حنجرته . فعل ــ بالضبط ــ ما أمره به نجامبانيني ؛ فَرَمَى رشاشه ، ورفع يدَيْه .

انتقل انتباهُ الجميع من الصبي الأبيض ليتركز على نجامبانيني . لم يُصَدِّقْ أكثرُهم ماكان يدور أمام عيونهم .

أخذ الرجال البيض الآخرون ورجال الحرس المحلي يرفعون أسلحتهم ؛ ليُطلِقوا النار على نجامبانيني . لكن الضابط المسئول صرخ فيهم مُرْتَعِباً : « هل تريدونه أن يقتلني أيها الحَمْقَى ؟ أم تريدون أن تَصْرَعُوني أنا ؟ أَخْفِضُوا أسلحتكم ! » .

كان الأمر صحيحاً ؛ فلم يكن هناك سبيلٌ لإصابة نجامبانيني من دون إصابة الضابط .

كان وَجِيب قلب نجامبانيني يُصِمُّ أذنَيْه ، لكن عقله كان يعمل بسرعة فائقة ليُقَرِّر الخطوة التالية . كان نجامبانيني ــ في الواقع ــ مُتَيَبِّساً من الخوف . لم تكن لَدَيْه أدْنَى فكرة عن استعمال المسدس ، ولم يكن يعرف ما إذا كان المسدس مُعَبَّأً بالطلقات أم لا ، لكنه حاول جهده لكي لا يَفْضَحَه خوفُه .


....وارفع يديك !!!!

تذكر ــ فجأة ــ الرجلَ الأعرج ــ ذا القبعة ــ الذي أعطاه رغيف الخبز في مطعم كيميوسو . تلفت يبحث عنه ؛ فالتقت عيونهما مرة ثانية . لم يكن نجامبانيني بحاجة إلى الإفاضة ؛ فقد فهم الرجل . قفز بسرعة البَرْق ، وانتزع الرشاش من آمِرِ الفَصِيل ، ووَجَّهَهُ نحو الجنود الاستعماريين .

إنه يَتولَّى القيادةَ ــ الآن ــ بدلاً من نجامبانيني ، وصرخ آمِراً : « ارْفَعُوا أيديَكم جميعاً ! لَسْتُمْ أكثر من دِيدان » . ثم خدعهم قائلاً : « أنتم مُحاطُون من كل جانب بجنود جيش التحرير الكيني » .

نَقَّلَ عينَيْه هنا وهناك ، وقفز كأن في قدمَيْه عِفْرِيت .

دَهِشَ نجامبانيني ؛ إذْ لَمْ يكن الرجلُ يَعْرُج على الإطلاق !

رَمَى الجنودُ البيض ورجال الحرس أسلحتَهم ، ورفعوا أيديَهم جميعاً .

ــ « والآن » ؛ قال الرجل : « فَلْيَتَقَدَّمْ أولئك الذين يريدون خدمةَ شعبهم ؛ الذين يرغبون في تحرير كينيا من النظام الإمبريالي وصنائعه ، ولْيَرْفَعْ كلٌّ منهم السلاح ! » .

٦

نهض أكثر الرجال من مجموعة (الماو ماو) ، واندفعوا نحو البنادق والذخيرة ، والتحقت بهم بعض الفتيات أيضاً . وهكذا ؛ طَوَّقَ أبطالُ الوطن جنودَ الاستعمار . وعندما رأى الآخرون أن الوطنيين يسيطرون على جنود الاستعمار ؛ تَصَرَّفُوا بطُرُق مختلفة : هَتَفَ بعضهم ، ونهض آخرون استعداداً للفرار من مذبحة رهيبة . لكن الرجل ــ ذا القبعة ــ أَمَرَهم أن يَلْزَمُوا أماكنهم جميعاً ؛ إذ كان ينبغي مُقاضاة الرجل المقنع أمام محكمة الشعب .

توجَّه رجل وامرأة نحو المخبر الذي كان يَرْتَجِفُ مثل ورقة في مَهَبِّ الريح ، انتفض قلب نجامبانيني في صدره ؛ عندما نُزِعَ قِناعُ المخبر ؛ فَمَنْ كان هذا الخائن القَذِر ؟ إنه جاسرو مونداندا ذاته !

ومن الفور ؛ حُكِمَ عليه بالموت ؛ فَرُبِطَ إلى شجرة ، وأطلق عليه الوطنيون الرصاص . ورأت المحكمة أنه لاينبغي إعدام الجنود الاستعماريين ؛ لكي لاتجعل الحكومة الاستعمارية من ذلك ذَرِيعَةً لإبادة سكان ليمورو ؛ فَتَقَرَّرَ الاستيلاء على ثيابهم العسكرية وطعامهم وذخيرتهم ، ثم يُرْبَطُون كل إلى شجرة في غابة نجويروبي . وهذا ماحصل .

وأمر الرجلُ ذو القبعة بأن يَتِمَّ توزيع بعض الأغذية المطبوخة على الحاضرين ، وخصوصاً الأطفال منهم ، ثم طلب منهم أن يعود كل واحد إلى بيته ؛ مُحَذِّراً إيّاهم أن ينظروا خلفهم .

أما الرجل والمقاتلون الآخرون من أجل الحرية ، ونجامبانيني ؛ فقد رَكبوا السيارات العسكرية ؛ مُرْتَدِين الملابس التي اسْتَوْلَوْا عليها من الأعداء ، واقتادوا فقط السيارات المُحَمَّلَة بالمؤُونَة والذخيرة .

ساروا عَبْرَ كِينِينْبِي مُتَوَجِّهِين نحو لُونْجُونُوت ، وعندما كانوا يَعْبُرُون حاجِزاً عسكريًّا ؛ كان البوليس البريطاني يُحَيِّيهم ويُوَدِّعُهم ؛ إذ كانوا يرتدون الثياب العسكرية الاستعمارية ، ويبدون كأنهم جنود استعماريون حقًّا . وعندما وصلوا لونجونوت ؛ فَرَّغُوا حمولة العربات من الأسلحة والمؤونة ، وأحرقوا العربات ، ثم فَرُّوا نحو الجبال ؛ يقودهم الرجل ذو القبعة ونجامبانيني .

تساءل نجامبانيني : « مَنْ يكون هذا الرجل الذي يعرف كل هذه الأمور ؟ » .

٧

كانت شهرة نجامبانيني قد سبقته إلى غابة نجيندا يثيا ؛ فاسْتُقْبِلَ عندما وصل وصَحْبُه إلى نجويروبي بحرارة الأغاني التي تُشِيد بانتصارهم . وذبح المقاتلون من أجل الحرية في نجويروبي عَنْزَةً ؛ تكريماً لهم .

كان نجامبانيني يريد أن يسأل الرجلَ ـــ ذا القبعة ـــ الكثيرَ من الأسئلة . لكن الرجل كان يبدو ؛ وكأنه يَتَجَنَّبُه . وخلال رحلتهم إلى غابة نجويروبي ؛ لم يَجِد نجامبانيني الفرصة لكي يطرح على الرجل أي سؤال . كان يريد أن يَتَعَرَّفَ اسمَ الرجل ، ويسأله عن عَرَجِه ، ولماذا أعطاه رغيف الخبز ، وغير ذلك من الأسئلة .

في تلك الليلة ، وعندما وصلوا معسكر الغابة ؛ بحث نجامبانيني عن الرجل . لكن بحثه لم يُسْفِرْ عن شيء ... فتساءل : « هل يقوم هذا الرجل بالمُعْجِزَات ؟ » .

وفي الصباح الباكر لليوم التالي ؛ قَدِمَ إليه اثنان من المقاتلين من أجل الحرية ، وقالا له : « الجنرال روهني يريد أن يَراكَ » ؛ فنهض نجامبانيني مُسْرِعاً ؛ ومَسَحَ وجهَه بقليل من الماء . كان قلبه يُغَرِّدُ طَرَباً ؛ وهو يفكر : « أخيراً سأرى الجنرال روهني ، وأصافحه يداً بيد ! » .

اقْتِيدَ إلى مدخل مَغارَة ، لكنه عندما دخلها لم يصدِّق عينَيْه . كان قد جَرَى ـــ بمهارة ـــ تحويلُ المغارة إلى بيت . وكان هناك طاولةٌ تحيط بها مقاعدُ عديدة ، وعُلِّقَتْ على الجدران أسلحة من كل نوع . لكن ... مَنْ كان يجلس على أحد المقاعد ؟ مَنْ مَدَّ يده ليُصافِحَ نجامبانيني ؟

كان هو الرجل نفسه ! الرجل ذو القبعة العريضة التي يَتَدَلَّى منها الشريط .

٨

سأله الرجل ؛ وهو يحاول أن يخفي ابتسامته : « لماذا تبدو عليك الدهشة ؟ » .

رَدَّ نجامبانيني ؛ وهو يتغلب ــ شيئاً فشيئاً ــ على اضطرابه : « إِذَنْ ؛ فأَنْتَ الجنرال روهني ؟ » .

ــ « نعم ! » .

ــ « لكنك لاتعرج » .

ــ « اجْلِسْ أولاً » ؛ قال له الجنرال روهني ، وطلب إلى رفاقه الانتظارَ في الخارج ؛ بعض الوقت . ثم قال لنجامبانيني بعد أن جلس : « وهذا مايُسمُّونه (التَّخَفِّي) » .

ــ « ولماذا كذِبتَ عَلَيَّ بشأن الخبز ؟ » .

ــ « لم أكذب عليك ؛ فنحن نخوض القتال من أجل أن يَكُفَّ أطفالنا عن البحث عن اللقمة مع القِطَطَة والكلاب في الحُفَر وصناديق القمامة . إن البندقية في يد المقاتل من أجل الحرية هي خبز الحياة . إنك تعرف ــ الآن ــ أن خلف كل أمر من أوامر حركة أرض كينيا والمقاتلين من أجل الحرية يَكْمُنُ سببٌ وَجِيه . أَعْطِنِي المسدس » .

حَلَّ نجامبانيني المسدس من وسطه ، وناوله للجنرال روهني . كان المسدس أسود فاحِماً ناعِم المَلْمَس ؛ كأنه يُنَظَّف يَوْمِيًّا .

وَمَضَتْ عَيْنا الجنرال روهني ؛ وهو يَرْبِتُ على المسدس ؛ كَمَنْ يُدَلِّلُ طفلاً أثيراً ، وقال مخاطباً نجامبانيني ؛ وهو يشير إلى المسدس : « هذا ما أنْهَى حياة الرئيس كيجورو جورو ! » .

— « هل يعني هذا أنكَ أنتَ الذي صَرَعْتَه ؟ » .

— « نعم ! » .

— « وكنتَ تَتَجَوَّل في ليمورو في وَضَحِ النهار ؟ وتقرأ — أيضاً — الصحيفة في شرفة مطعم كيميوسو ؛ دون أن تَخْشَى الجنودَ ورجال البوليس الذين يزدحم بهم المكان ؟ » .

رَدَّ الجنرال روهني من الفور : « كنتُ أخاف بالطبع ، لكننا ينبغي أن نتعلم كيف نقاتل الخوف ونقهره . أنت تعرف القول الشهير : إن المرء لايموت سِوَى مرة واحدة » .

وبينما كانت عَيْنا نجامبانيني مُثَبَّتَتَيْن على المسدس ؛ سأله الجنرال روهني : « هل ترغب في الاحتفاظ به ؟ » .

— « نعم ! » . رَدَّ نجامبانيني بحماسة ، « وهل يمكنني أن أرتدي القِراب وحزام الرصاص ؟ » .

— « نعم ؛ إنه لكَ . فلْيَكُنْ هذا المسدس الوَعْدَ الأول بأعمال عظيمة قادمة . بقي أن نذبح عنزةً ؛ احتفاءً بكَ ، وأن نُزَيِّنَكَ بطين الأرض(٥) ، ثم نُغَنِّي أناشيد النصر » .

---

(٥) **طين الأرض** : يبدو أنه طقس بدائي إفريقي ؛ للاحتفال ببلوغ الفتَى مبلغ الرجولة . اكتسب معنًى وطنيًّا ؛ عندما أخذت تستخدمه الماو ماو للاحتفال بانضمام مقاتلين جدد إلى صفوفها .

أرسل الجنرال روهني المقاتلين الذين كانوا ينتظرون في الخارج ؛ ليَجْلبُوا الغنائم التي تَمَّ الاستيلاء عليها من الجنود المستعمرين ، واعطَى نجامبانيني المسدسَ والقِرابَ والرصاصَ ؛ فارتداها فوق الملابس التي تَمَّتْ مُصادَرَتُها من الصبي الأبيض .

ها هو نجامبانيني يبدو ؛ وكأنه واحد من جنود منظمة أرض كينيا وجيش الحرية . بَدَت السَّراوِيل والقميص والصُّدْرَة ؛ كأنها فُصِّلَتْ على مقاسه بالفعل . عانَقَه الجنرال روهني ، وثَبَّتَ القراب وحزام الرصاص ؛ بحيث استقرا على جنبه ، ثم خاطبه قائلاً : « من الآن فصاعداً ؛ أصبحتَ ـــ يا نجامبانيني ـــ مقاتلاً من أجل حرية كينيا . وستُؤَدِّي ـــ الليلة ـــ مراسيم الانضمام إلى جيش الحرية ، وتُقْسِم اليمين التي يُقْسِمها جنود (الماو ماو) ؛ قَسَمَ جيش الشعب . لكن ؛ ماهي مُكافأتكَ ؟ رُبَّما الموت ! لكنه سيكون موت البطل ؛ البطل الذي يقاتل من أجل تحرير وطنه من اللصوص الذين ندعوهم الإمبرياليين ، ومِنْ خَدَمِهم الذين يَرْعَوْن مصالحَهم هنا .

لقد الْتَحَقْتَ اليوم بصَفِّ المقاتلين من أجل الحرية ؛ الذين يقاتلون من أجل وطننا الثَّرِيِّ الجميل . هؤلاء الأبطال مثل وايياكِي واهِنجا ، وكُويْتالِل ، ومِي كاتِيلِيلِي ، وجاكِري وا جاكُونْجو ، والجنرال كاجُو ، وتانْجانيكا ، وكثيرين غيرهم مِمَّنْ ضَحَّوْا بحياتهم من أجل كينيا ؛ لن ننساهم أبداً ، وسَنُمَجِّدُهم إلى الأبد .

لكننا سَنَلْعَنُ أولئك الخونة الذين باعوا أرضنا للأجانب ؛ الخونة من أمثال مُويِنْدانْدا ، وكينيا نْجُوي واجاثِيرِيمُو ، ومُومِيا ، ولِنانا ، ولُوكا كاهانْجارا ، والرئيس راجاي ، ونْجِيبِيرِي ، وغيرهم من الرؤساء الذين خدموا الأجانب .

إن الأبطال من أمثال واييا كِي سيُكَرَّمُون جيلاً بعد جيل . أما الخونة من أمثال كينيا نْجُوي ؛ فسيُلْعَنُون إلى الأبد ؛ ففي أي صَفٍّ تَقِفُ يا نجامبانيني ؟ » .

اغرورقت عَيْنا نجامبانيني بدموع الفخار . استقرت يده اليسرَى على المسدس ؛ وهو يُجِيب . « لقد اخْتَرْتُ أن أكون مقاتلاً من أجل حرية شعب كينيا ، وهكذا يمكن أن نَتَحَرَّر من الإمبرياليين وخدمهم » .

عانق الجنرال روهني نجامبانيني للمرة الثالثة ، وخاطبه قائلاً : « لقد تَمَّتْ تَسْمِيَتُكَ(٦) واحداً من الذين يُحِبُّون وطنهم وشعبهم . وبالمقابل ؛ سيُحِبُّكَ الوطن والشعب . ومن الآن فصاعداً ؛ سيدعو كلٌّ مِنَّا الآخر رفيقاً ! » .

امتلأ نجامبانيني بالفخر ، وتذكر قولاً تُرَدِّدُه أمه واسو دائماً : « البطل لايُقاس بضخامته ؛ فبإمكان الجسد النحيل أن ينطوي على قوة عملاق » .

ابتعد نجامبانيني عن جماعته قليلاً ، تَوَقَّفَ بُرْهَةً ، ثم استدار ؛ فرأى أمامه جبل كينيا ..

كان مسدسه والرصاص يُشِعُّون تحت شمس الصباح ؛ مُؤْذِنِينِ بفجر حياة جديدة .

---

(٦) **تسميتك** : في طقوس الاحتفال ببلوغ الفتَى مرحلة الرجولة ؛ يُمنَح المُحْتفَى به اسماً جديداً . والإشارة هنا إلى أن نجامبانيني قد أصبح ـــ بوصفه مقاتلاً من أجل شعبه ـــ كائناً جديداً .



لقد تمّت تسميتك واحدا..
من الّذين يحبّون وطنهم

دار الفتى العربي للنشر والتوزيع

سلسلة الأفق الجديد

تضمُّ مجموعة من أجمل القصص الخيالية المُثيرة . بعد قراءة هذه السلسلة نجد أننا قد أحببنا أبطالها برغم معرفتنا أنهم ليسوا أبطالاً من عالم الواقع .

صدر من السلسلة : ■ **القنديل الصغير** / غسان كنفاني ■ **حارسة النبع** / زين العابدين الحسيني ■ **السمكة الصغيرة السوداء** / صمد بهرنجي ■ **البلح الأحمر** / محجوب عمر ■ **نسيم الجناح** / بول إيلوار ■ **أوبرا القمر** / جاك بريفير ■ **ليمونة الحاياة** / فؤاد حداد / ■ **يوم العلم** / فرانسيس كوبلاند ■ **المسدس** / نجوجي واثيونجو .

